الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشّعبية

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمّد بوضياف– المسيلة

كـلّية الآداب واللّـــغات

قسم اللّغــة والأدب العربي شعبة الدراسات الأدبية.

السنة الثانية ليسانس.

الأفواج:1+2+3+4+5+6.

الحصة 7 من الأعمال الموجهة للمراقبة المستمرة في مقياس النقد الأدبي الحديث.

إعداد الأستاذ: عبد الرحيم بحري

عرض حال الاستجواب – عن بعد –

انتهى طه حسين في كتابه: " في الشعر الجاهلي" – في نسخته الأصلية وطبعته الأولى الصادرة العام 1926 – إلى أن ما يسمى شعرا جاهليا ليس من الجاهلية في شيء؛ إنما هو شعر أنشأه المسلمون ثم نحلوه الجاهليين، مصرحا بأن ما أوصله إلى هذه النتيجة إنما هو اعتماده على منهج في البحث لم يعرفه أنصار القديم ولا قِبَل لهم به، فخلخل بذلك بديهيات وقناعات عمرت لما يقرب من ثلاثة عشر قرنا ونصف، وهو ما أثار جدلا فكريا ودينيا في عصره لا تزال آثاره إلى يومنا هذا في أروقة الجامعات العربية؛ تجعل الناقد يطرح جملة من التساؤلات من مثل:

ما هو هذا المنهج؟ وما هي الرؤية التي ينبني عليها؟ ثم استنادا إلى أي حُجج أطلق طه حسين حكمه ذاك على الشعر الجاهلي؟ وما مدى مصداقية طرحه؟

لا شك أن القارئ للبحث الموسوم بـ: " في الشعر الجاهلي" ليصطدم للوهلة الأولى بأن صاحبه اصطنع لنفسه منهجا سماه: منهج الشك الديكارتي، مدعيا بأن أساسه هو تجرد الباحث من كل ما قد يؤثر على مصداقية بحثه، وفي مقدمة ذلك؛ التجرد من مقومات الشخصية الدينية وترسبات الثقافة القومية، لكن أي باحث متمرس يدرك أنه لا وجود لمنهج علمي ولا نقدي اسمه منهج الشك الديكارتي، وأن كل ما هنالك أن الشك الديكارتي هو إحدى خصائص الروح العلمية المتعارف عليها في أدبيات البحث الأكاديمي؛ التي يطالب كل باحث أكاديمي أن يتمتع بها، وعليه لم يبق لتصريح صاحب " ذكرى أبي العلاء" من قيمة، ولم يبق للناقد إلا الاعتماد على القراءة والاستقراء لمعرفة طبيعة المنهج النقدي الذي انتهجه الكاتب.

إن تتبع مباحث الكتاب الموسوم أعلاه بعين الناقد ليفضي إلى أن المنهج النقدي الذي اتبعه عميد الأدب العربي هو المنهج التاريخي في نسخته الفرنسية التي طورها الفرنسي "جوستاف لانسون" والمعروف اختصارا باللاَّنسونية؛ وهو منهج ينبني على رؤية مفادها أن: ما من أدب؛ مهما كانت لغته، ومهما كان المجتمع والعصر الذي ظهر فيهما إلا ويعكس بالضرورة الخصائص السوسيوثقافية للمجتمع والعصر اللذان ولد فيهما؛ بمعنى أن كل أدب هو مرآة لمجتمعه في حقبة تاريخية بعينها.

هنا قد يشكل الأمر على بعض من تعرفوا على المناهج النقدية نظريا دون الإلمام بخلفياتها الإبستِمولوجية ودون اختبار خطواتها الإجرائية فيقولوا: أليس المنهج الاجتماعي في النقد تقوم رؤيته على أن الأدب مرآة للمجتمع هو الآخر؟ فما الفرق بينهما إذن؟ فيقال: بلى! غير أن صاحب المنهج التاريخي يكون مُنطلقه في المرحلة الأولى الوثائق التاريخية المحققة علميا وذات المصداقية الأكاديمية، التي تؤرخ للمجتمع في حقبة تاريخية بعينها؛ يستقرئها مستنتجا خصائص الحياة لدى ذلك المجتمع في تلك الحقبة، مدونا كل ذلك، ثم يلجأ في المرحلة الثانية إلى النصوص الأدبية المنسوبة إلى تلك الفترة الزمنية وذلك

المجتمع ليبحث عن وجود ما سبق وأن استنتجه في المرحلة الأولى ودونه، فإن وجده حقق صحة النص الأدبي ونسبته إلى مجتمعه وعصره وإلا حكم بأنه منحول مشكوك في نسبه ونسبته. أما صاحب المنهج الاجتماعي فيلجأ مباشرة إلى استقراء النص الأدبي باعتباره وثيقة اجتماعية ليستخلص صورة المجتمع الذي يتحدث عنه الكاتب في زمن النص.

لعل صاحب " الأيام" ما كان لينفي جاهلية الشطر الأعظم من الشعر الجاهلي لولا وقوفه على قرائن ودلائل وضعت هذا الشعر محل الاشتباه في أصالته، فما هذه القرائن؟ وهل ترقى حقا لمستوى الاحتجاج بها؟

لقد لجأ صاحب "حديث الأربعاء" إلى القرآن باعتباره الوثيقة التاريخية العربية الوحيدة التي يمكن الاطمئنان إليها في معرفة طبيعة الحياة الجاهلية نظرا لتواتره وثبوت نصه بما لا سبيل إلى الشك فيه، ومن استقرائه استخلص خصائص الحياة العربية الجاهلية التي لخصها في:

أ- الحياة الدينية للعرب، وكيف أنهم كانوا في غالبيتهم وثنيين، مع أقلية يهودية في المدينة، وأخرى نصرانية في نجران واليمن؛ لأن " في القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدونه من الوثنية، وفيه رد على اليهود، وفيه رد على النصارى... وهو لا يرد على يهود فلسطين، ولا على نصارى الروم...وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر، ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه، وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة" (طه حسين،1926، 17).

ب- عقليتهم، وكيف أنهم طبقتين؛ طبقة أشراف وكانوا يمتازون بعقلية قوية وقدرة على الجدال والمحاججة اشتغل القرآن بمقارعة حججهم والرد عليها؛ فهم كما يصورهم القرآن " لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية، إنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة" (المصدر نفسه، 20)، وطبقة عامة؛ ضعفاء تُبَّع لزعمائهم وأشرافهم؛ أولئك الذين سيقولون يوم القيامة: ﴿...رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴿٦٧﴾﴾، *وفيهم الأعراب الذين قال فيهم رب العزة:* ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٩٧﴾﴾ (المصدر نفسه، **20-21**).

ت- سياستهم وعلاقاتهم الدولية؛ " أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين، حزب يشايع أولئك، وحزب يناصر هؤلاء ! أليس في القرآن ... ﴿الٓمٓ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم

مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾" (المصدر نفسه، 22)

ث- اقتصادهم؛ وكان قائما على التجارة الدولية مع اليمن شتاء حيث الأحباش والفرس، ومع الشام صيفا حيث الروم، قال رب العزة - جل في علاه -: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ ۝٤﴾ (المصدر نفسه، ص.ن)

ج- حروبهم العسكرية ذات الخلفية الدينية مع نصارى اليمن وأحباشها؛ تلك التي كانت وقودها " المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأها الأحباش في صنعاء هي التي دعت إلى حرب الفيل التي ذكرت في القرآن؛ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۢ ۝٥﴾ (المصدر نفسه، 28)

ح- نظامهم الاجتماعي، وكيف أنهم كانوا أسيادا ذوي جاه ومال يخدهم عبيد يباعون ويشترون في سوق النخاسة، حث القرآن على عتقهم بعد نزوله، يقول ربنا – تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣﴾ وفي الآية سلوك اجتماعي كانت العرب تسلكه وهو قول العربي لزوجته التي كره وطأها: أنتِ عليّ كظهر أمي.

خ- علاقاتهم الأسرية؛ وكيف أن العربي كان إذا بشر بأن وليده البكر أنثى ظل مكتئبا من عار ما أنجب، فلا يزول عنه الشعور بالعار إلا بوأدها، وهكذا يتكرر الأمر حتى تلد زوجه ذكرا فيكون فخرا للأسرة ومعتقا لأخواته من البنات اللائي يأتين من بعده، يقول المولى – سبحانه - : ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾.

د- يضاف إلى كل ما سبق شيء آخر " أثبته البحث الحديث، وهو أن هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) [عرب جنوب الجزيرة العربية] ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة) [عرب شمال الجزيرة العربية]، وقد رُوِيَ عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول: ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا" (المصدر نفسه، 25) .

ذ- وأخيرا وليس آخرا – ودون أن ننسى - يقول طه حسين: " فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيرا من تباين اللهجات".

وبعد أن سجل صاحب " فصول في الأدب والنقد" كل تلك الملامح الجاهلية في حياة عرب ما قبل الإسلام، راح يبحث عنها في قصائد من يُدْعَوْنَ بالشعراء الجاهليين، فلم يكد

يجد لها أثرا يذكر؛ وفي ذلك يقول: " فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية" (المصدر نفسه، 18-19).

وعندما نظر في كتب علماء اللغة ممن جمعوا أشعار العرب وديوانهم، اكتشف أنهم يقرون، لا بل " يعتقدون أن العرب كانوا قبل الإسلام أمة معتزلة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي؛ وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات، فهم يقولون إن الشعر الجاهلي لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي أثرت في الشعر الإسلامي: لم يتأثر بحضارة الفرس والروم" (المصدر نفسه، 21) وهو خلاف ما رأيناه سابقا وأثبته القرآن.

وحين النظر في شعر الشعراء القحطانيين – وهم عرب الجنوب العاربة- " لا نجد فرقا قليلا ولا كثيرا بينه وبين شعر العدنانية، نستغفر الله ! بل نحن لا نجد فرقا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن، فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله؟ أمر ذلك يسير، وهو أن هذا الشعر الذي يضاف إلى القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية في شيء، لم يقله شعراؤها، وإنما حمل عليهم بعد الإسلام" (المصدر نفسه، 30).

ليس هذا فحسب، بل يضيف طه حسين قائلا: " تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح، فسترى أن فيها مطولة لامرئ القيس وهو من كندة أي من قحطان، وأخرى لزُهيْر، وأخرى لعنترة، وثالثة للَبيد، وكلهم من قيس، ثم قصيدة لطَرَفَة، وقصيدة لعمرو بن كلثوم، وقصيدة أخرى للحارث بن حِلِّزَة وكلهم من ربيعة. تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر أن فيها شيئا يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة أو تباينا في مذهب الكلام؛ البحر العروضي هو هو، وقواعد القافية هي هي، والألفاظ مستعملة في معانيها كما نجدها عند شعراء المسلمين، والمذهب الشعري هو هو". (المصدر نفسه، 32-33)

ثم يعقب على ذلك قائلا: " لسنا نستطيع أن نفهم كيف استقامت أوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دونها الخليل لقبائل العرب كلها على ما كان بينها من تباين اللغات واختلاف اللهجات...؟" (المصدر نفسه، 34-35)

ويختم كل ذلك متسائلا: " أليس هذا الشعر الجاهلي الذي ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم، ولا حضاراتهم بل لا يمثل لغتهم، أليس هذا الشعر قد وضع وضعا وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن في هذا..."

تلكم هي إذا أبرز حجج عميد الأدب العربي في عصره، فهل تراه أصاب في كل ما ذهب إليه أم أنه جانب الصواب وحاد عن الطريق؟

من الانصاف القول بأن طه حسين قد أصاب فيما ذهب إليه لو أنه قيد نتائجه في حدود العينة الشعرية التي درسها، أما وقد أصدر أحكاما مطلقة على الشعر الجاهلي في معظمه، وهو الذي لم يدرسه كله ووقع في فخ الاستقراء الناقص؛ لأنه اعتمد على ذاكرته لا على البحث المعمق في بطون الكتب والموسوعات، ومقارنة النسخ والمخطوطات لاستحالة ذلك في عصره لقلة حركة النشر والتحقيق أولا، ولعاهته ثانيا فهو كفيفٌ يعجز عن التحقيق بكل خطواته، وهو ما ترجمه تطبيقه بعض خطوات المنهج التاريخي في التحقيق دون غيرها، فلا يمكن القول غير أنه جانب الحقيقة العلمية.

ليس هذا فحسب، بل إن صاحبنا وقع في خطئ منهجي آخر ألا وهو تعميمه العلمي على ظاهرة فنية – شعرية- تأبى التعميم؛ ذلك أن التعميم العلمي هو ميزة تستأثر بها الظواهر العلمية دون الفنية، ولو توقف الأمر عند هذا الحد لشفع له ذكاؤه الحاد الذي لا ينكره منصِف، ناهيك عن قوته في التحليل المنطقي، لكن تعامله بانتقائية مع النص الشعري الجاهلي أولا، ثم مع الخطوات الإجرائية للمنهج التاريخي في النقد وتحقيق النصوص ثانيا نسفت كل ذلك، ومع هذا فإن الشعرة التي قصمت ظهر البعير ! هي ادّعاؤه تبنيه روح الشك الديكارتي، وتجرده من الأحكام المسبقة، في حين أن البحث أثبت تأثره بما لا يدع مجالا للشك ببحث نشره المستشرق البريطاني الإنچليكاني ذوي الأصول اليهودية " ديفيد صمويل مارچوليوث" في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة 1925 بعنوان " أصول الشعر العربي" (the origins of Arabic poetry) ، معنى هذا أن صاحب " في الأدب الجاهلي" قد اطلع على أفكاره سابقه، فتأثر بها، ثم راح يبحث لها عن قرائن تدعمها، وهي تهمة عدم التجرد عينها التي كان يتهم بها أنصار القديم حسب زعمه، وهذا أهون ما يمكن اتهامه به، وإلا فالرجل انتحل أفكار مارچوليوث، ووقع في السرقة العلمية، وهو من هو ! إنه من اتهم أسلافه من علماء العربية وعباقرتها بانتحال الشعر الجاهلي والتدليس في نسبته !، وحتى وإن برأه من برأه، فالعبرة بنتائج المقارنة بين البحثين والأسبقية لمن سبق لا بالمجاملات، وقديما قيل: "رمتني بدائها وانسَلَّت" !

ختاما لا يسعنا إلا أن نقول بأن ما توصلنا إليه هنا لا يعني أننا نحط من قدر عميدنا للأدب العربي؛ فالرجل قامة أدبية، وهامة علمية، ولكل جواد كبوة، ويا ليت بعضنا يبلغ – في الأدب والفكر والنقد واللغات والبحث والتدقيق والتحقيق - مُدَّ الرجل أو نصيفه.